مجلة أنساق للفنون والآداب والعلوم
الإنسانية
الإصدار الخامس عشر
المجلد (٥) العدد (٢)
٢٠٢٤ (١-١٧)

مجلة
أنساق

Middle East Institution of scientific Publishing

الموت المعنوي في الشعر الجاهلي (رؤية في البواعث والاسباب)

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

أ. م. د. مشتاق طالب منعم

جامعة واسط، كلية التربية الأساسية، قسم اللغة العربية

نشر إلكترونياً بتاريخ: ١٩ مايو ٢٠٢٤م

الملخص

تعد فكرة الموت المعنوي واحدة من أهم الأفكار التي وقف عندها الشاعر الجاهلي كثيرا، لا سيما وأن بواعثها كثيرة، لارتباطها بالوجود الانساني والظروف المصاحبة له في رحلته في الحياة، فأغلب التي عالجها الشعراء ابان ذلك العصر تتعلق بالجوانب الذاتية والموضوعية وتلامس المشاعر كثيرا، وبما إن الشعر بوح يشي بما يختلج ذات الشاعر من أزمات وأفراح وأتراح، ظهرت تلك الفكرة في شعر الشعراء، وهي انعكاس لمواقف أثرت في حياة الشاعر ورؤيته ووجدانه.

لقد جسد الشاعر فكرة الموت المعنوي خير تجسيد وأظهرها في شعره في مواضع مختلفة، لاسيما حين تعامل مع موضوعات التحول المكاني وما يجسده ذلك التحول، وما يشعر به الشاعر نتيجة ذلك، فضلا عن مظاهر الفقد التي كادت أن تملأ فضاء شبه الجزيرة العربية جراء الصراعات المختلفة التي حدثت فيها، ولا ننسى عوامل الفقد المتمثلة برحيل الاحبة ومغادرة الشباب وحلول المشيب، الذي خلف معاناة كبيرة باح بها الشعراء، فضلا عن المعتقد المتمثل بثقافة التحريم التي جسدها المجتمع وأسبغ عليها كثيرا من السمات الاسطورية، وبالتحديد حين تتعلق المسألة بالثأر.

الكلمات المفتاحية: الموت المعنوي، الفقد الانساني، التحول، ثقافة التحريم

Abstract

Moral death had long been a prominent thought in pre-Islamic poems having been linked to various motives are many and its very connection to the human nature and existence. Many pre-Islamic poetic themes dealt with subjectivity, objectivity, and emotionality. As poetry is often shepherding the crises, joys, and comforts of the then-poets poet, moral death-themed poems had thus developed to reflect poet-influencing attitudes, conditions, and life-time transformations. Thus,

several pre-Islamic poets had well manifested moral death in various walks and settings, particularly in spatial along with the emotions, ideas, and stances contained therein. Additionally, missing and loss had been so common in pre-Islamic Arabia owing to the then-conflicts, tribal clashes, and in-fights, and civil unrests, not to mention physical, psycho-social, and personal losses represented by aging, death, death of one's beloved ones which altogether inspired contemporaries to create death-related poems. Pre-Islamic Arabia has been affected by taboo-related thoughts which left much suffering for poets, as these thoughts have originated mythologies among these societies especially when it comes to revenge.

Keywords: Moral death, pre-Islamic poetry, Literary themes, Poetic taboos, Psycho-social transformation, Pre-Islamic Arabia.

*** المقدمة**

ربما يعتقد الكثير ان قضية الموت واشكالياته قضية تخص من يغادر الحياة الدنيا الى مثواه الأخير، وهذا الاعتقاد منطقي جدا باعتبار الفراق يمثل خروج الروح من الجسد والغياب عن الانظار، وقد اختلفت المعالجات والوسائل التي حاول بنو البشر التتخلص من شبح الموت المرعب، وعلى مر العصور والأزمنة، وكانت وجهات النظر تقترب في بعض الاحيان حتى تكاد تكون واحدة، وتتباعد الى حد التقاطع والانفصال، وهذا الامر لا يعنينا مطلقا لسببين:-

١- كثرة الدراسات التي تناولت موضوع الموت والبحث في اشكالياته سواء أكان ذلك مقترنا بالحياة أم أنه بحث لوحده.

٢- ان موضوع الموت المعنوي يختلف اختلافا كبيرا عن الموت الحقيقي الذي تحدثت عنه الدراسات والابحاث، كون الموت الحقيقي يمثل غيابا تاما عن الحياة، أما الموت المعنوي، فيمثل حضور الجسد والروح أمام العيان، لكنه شعور بالانكسار والانهدام من الداخل وعدم الشعور باللذة بأشكالها كافة.

ومما لاشك فيه أن ذلك كله تقف وراءه مجموعة من العوامل والمثيرات التي تمثل قوة ضاغطة على الذات بحيث تجعلها فاقدة لوجودها المادي، مع الاخذ بالحسبان ان العوامل تختلف باختلاف الموقف وسياق الحال، هذا من جانب، ومن جانب آخر، ان عدم الاحساس بالوجود لم يكن على درجة واحدة، بل يأتي بدرجات متفاوتة، إذ إن الذات الشاعرة في بعض الاحيان لم تستطع أن تعبر عن حقيقة وجودها، وقد يأتي الموت المعنوي بتمظهرات مختلفة، ومما يجب ملاحظته وتسجيله من اختلاف بين الموت الحقيقي والموت المعنوي، أن الموت المعنوي قد يزول بزوال المؤثر، أو تخف وطأته بمرور الزمن، لكن الموت الحقيقي يختلف عن ذلك اختلافا تاما، لأن الذات باستطاعتها التغلب على المؤثر أو الخروج منه، أما في الموت الحقيقي فذلك ضرب من المحال، وعلى سبيل المثال لا الحصر، فإن اللحظة التي يقف فيها الشاعر على الطلل المنهار تمثل موتا معنويا شديدا للشاعر، لكن باستطاعته التغلب والخروج من أزمته بعد برهة من الزمن، أما فقد الاحبة، فإن الذات تعيش حالة موت معنوي أطول من سابقه، أما الوصول الى مرحلة الشيخوخة، فإنه يمثل موتا معنويا مضاعفا، وتجربة قاسية،

لأن الشاعر يعيش لحظتين مأساويتين الاولى الانقطاع عن ملذات الحياة والاحساس بالسأم، والثانية مرحلة انتظار الموت الحقيقي الذي يقضي على كل فعل.

*** مشكلة البحث**

يعالج هذا البحث فكرة الموت من وجهة نظر مغايرة، إذ إن الفكرة الرئيسة السائدة تعني أن الموت هو انفصال الروح عن الجسد وغياب الجسد عن الأنظار، وهذه فكرة غير دقيقة، فالموت الحقيقي يقابله النوع الاخر، وهو الموت المعنوي الذي يتمثل بالبقاء على قيد الحياة مع عدم الاحساس بها، ومن هنا كان على الباحث أن يجد إجابات لأسئلته المتمثلة بالبحث عن مفهوم الموت المعنوي، وما التجليات التي ظهر بها؟ وما البواعث والمثيرات التي دفعت الشاعر وجعلته ينقطع عن التعاطي مع متطلبات الحياة بصورة طبيعية؟.

*** ما يميز هذه الدراسة عن غيرها**

إن أهم ما يميز هذه الدراسة هو بحثها عن تجليات الموت المعنوي وبواعثه والأسباب التي أدت الى ذلك، هذا من جانب، ومن جانب آخر، إن البحث في الموت المعنوي وتجلياته لم نجد لها أثرا في الدراسات السابقة، لأن الدراسات ركزت على الموت الحقيقي، وأسبابه، والبحث عن عوالم الخلود، وهذا الأمر لا يمكن أن يكتمل ما لم يدرس وجهه الآخر المتمثل بالموت المعنوي.

*** الموت المعنوي**

لا شك في ان الحياة الجاهلية بكل ما فيها من تناقضات واختلافات على الاصعدة جميعها سواء أكانت اجتماعية أم اقتصادية أم دينية تحمل في طياتها الكثير من الارهاصات والاختلافات على مستوى الفرد والجماعة، فما يعيشه الفرد وما يشعر به من أحاسيس مختلفة يولد بداخله احساسات متباينة تختلف من شخص الى آخر، فلحظات الفرح والسرور تعترضها بعض العوامل التي تساعد على هدمها ولحظات السعادة مهما توافرت لها البواعث والمسببات لا بد من وجود لحظة هدم أو انكسار تحدث، فتغير مسار الاحداث بمجملها، وهذا الأمر لا يقتصر على شخص دون آخر ولا على فئة دون اخرى، اذ يستوي الجميع في هذا الأمر، فضلا عن ذلك ان البواعث والمثيرات متباينة بتتابع الأيام.

إن الموت المعنوى احد القضايا المهمة التي وقف عندها الشاعر الجاهلي وقفة تأمل واع، وبحسب ما أعتقد أن الموت المعنوي لا يقل شدة ولا وطأة عن الموت الحقيقي، لا سيما اذا وضعنا بحسباننا ان الموت الحقيقي قد تخوف منه الشاعر كثيرا، لأنه يفسد عليه لذة الحياة ومع ذلك كله نجد لدى الشاعر محاولة ابعاد ذلك الشبح من خلال محاولة تناسي لحظات الموت، أما في الموت المعنوي نجد الشاعر يفقد الاحساس بكل شيء جميل حوله، فتتحول ايامه الى ركام متشح بالسواد، لا يمكن تبدله أو اختيار وسيلة تخفف من وطأة تلك اللحظة، وربما كان الموت المعنوي وسيلة أوصلت الشاعر الى الموت الحقيقي. بدءا لا بد لنا من القول: إن الموت الحقيقي لا يختلف عن الموت المعنوي، والفارق المهم بينهما ان الموت الحقيقي يمثل فناء الجسد، أما الموت المعنوي، فيعني البقاء على قيد الحياة، مع فقدان القدرة على التعاطي والعيش مع المجتمع بصورة طبيعية، مع اختلاف الدوافع والاسباب ووجهات النظر، لأننا وجدنا من خلال قراءة النصوص الشعرية أن الموت المعنوي يأتي بنسب متفاوتة ومختلفة، على حسب الموقف والسياق، والعامل المؤثر في صاحبه، وقد عبّر بعض الشعراء عن تجارب حقيقية فيما جانب بعضهم الآخر الحقيقة والصواب، لكن تعبيراتهم

عن الموت المعنوي كانت حقيقية جدا وصادقة ومعبرة في الوقت ذاته عما يختلج في نفوسهم وعما يتعرضون له من ويلات جعلتهم يتذوقون طعم الموت الحقيقي، وربما تمنى بعضهم الموت وفضله على الحياة، وهذا الامر يكشف عن جرح عميق عاشه الشاعر وأحس به.

لقد تجلى الموت المعنوي عند شعراء العصر الجاهلي بصور مختلفة و متعددة ابتداء من البيئة وصورها المختلفة التي تجسدت فيها صور الموت المعنوي وليس انتهاء بما يتعلق بحياته الاجتماعية.

لقد تجسد احساس الشاعر الجاهلي بالموت المعنوي من خلال مجموعة من الموضوعات التي يمكن اجمالها بما يأتي:-

١- التحول المكاني

إن التحول المكاني يعد من أهم المتغيرات التي تسهم إسهاما فاعلا في ضعف الذات في كثير من الأحيان، لا سيما حين يتعلق الأمر بظروف خارج ارادة الذات، فتشعرها بالضعف والوهن والانكسار، وتتحول معها بواعث الحياة الى بواعث موت تؤطر بظلامها حياة الشاعر، فتتوالد منها احساسات شتى، وهناك الكثير من مظاهر التحول التي تحدث في حياة الفرد والجماعة على حد سواء، لكن عوامل الاحساس بها تختلف من شخص الى آخر ومن سبب الى سبب، فما يحدث بارادة الذات أقل حدة وتفاعلا مما يحدث قسرا وقهرا.

ويتجسد التحول المكاني بمظاهر مختلفة وردت في كثير من أشعار شعراء الجاهلية تحت مضامين وموضوعات رئيسة يمكن ايجازها بما يأتي:-

أ- الطلل وقوى الهدم

ان الحديث عن الطلل حديث طويل ومتشعب، وهناك الكثير من الدراسات التي اغنتنا عن الحديث عنه والخوض في مضامينه ودلالاته، وما يهمنا في هذا الموضع هو تحديد الالية التي جعلت الشاعر يشعر بالعجز أمام قوى الهدم التي اشتركت فيها الطبيعة والانسان في بعض الاحيان، لتحول شواخص الحياة الى رموز اندثار وموت، وهذا ليس بحكم عام، بل قد تكون بعض الاطلال عامرة بالحياة مثل طلل زهير بن أبي سلمى، مع الانتباه لفاعلية الزمن، إذ إن فاعليته مختلفة فقد تلعب على المتضادات، فما كان خرابا في اليوم كان حيا بالأمس والعكس صحيح.

إن أهم ما يمكن ملاحظته في الطلل الذي أمات الشاعر موتا معنويا هو ثيمة التحول مع الاحتفاظ ببقايا استطاع الشاعر التعرف من خلالها على الطلل المنهار، وذلك ما دفع الشاعر الى الاستسلام والبكاء الذي يعد عتبة أولى ومرحلة سابقة للموت المعنوي ومن ثم الاستسلام للواقع المأساوي الذي ألقى بضلاله على المشهد، ويبدو ان السبب الرئيس الذي يدفع الشاعر الى البكاء على الطلل هو مجموعة من البواعث التي تثير الشاعر فتجعله يرتبط ارتباطا معنويا وروحيا بالطلل، لما له من قيمة معنوية وذاتية وحتى دينية، لأنه كان قد تعبد في ذلك المحراب وجلس فيه وشعر بالفرح والسرور وعاش لحظات الحياة الحقيقية التي تحولت الآن الى مأساة شخصت أمامه.

لقد شعر كثير من الشعراء بالموت المعنوي أمام أطلالهم، فهذا امرؤ القيس يقول:-

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ ... بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ
فَتُوْضِحَ فَالمِقْرَاةِ لَمْ يَعْفُ رَسْمُهَا ... لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وشَمْأَلِ
تَرَى بَعَرَ الأَرْآمِ فِي عَرَصَاتِهَا ... وَقِيْعَانِهَا كَأَنَّهُ حَبُّ فُلْفُلِ
كَأَنِّي غَدَاةَ البَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّلُوا ... لَدَى سَمُرَاتِ الحَيِّ نَاقِفُ حَنْظَلِ
وُقُوْفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُم ... يَقُوْلُوْنَ لاَ تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَمَّلِ

وإنَّ شِفائِي عَبْرَةٌ مهراقةٌ فَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ
(القيس، 1969، الصفحات 8-9)

إن هذه الوقفة مثلت موتا معنويا للشاعر لاسيما اذا أخذنا بنظر الاعتبار ان ذلك الطلل هو طلل كندة المنهارة التي تحولت ربوعها العامرة بالحياة الى أرض يباب خلت من مظاهر الحياة البشرية، وهذا الامر يدفعنا الى القول: بأن خلو الديار من ساكنيها يمثل شعورا بالوحدة والضياع فيؤدي الى الموت المعنوي.

ومما يزيد من فاعلية الزمن وقوته وقدرته على القهر الانساني وسلب ارادته هو تعبير الشاعر عن "موقف جماعي اقتضته طبيعة البيئة الثقافية للمجتمع، فيتألم لمصير الجماعة، ويُكسب ذاته أبعاداً كونية ودلالات جماعية مشتركة نظراً لالتحامها بالهموم والمحن العامة" (الشاطئ، 1967، صفحة 39)، وان عدم القدرة على المواجهة يعني أن الحياة لا يمكن أن تستمر تحت تأثير ثلاثية القضاء والفناء والتناهي (براونه، 1963، صفحة 159)، التي تجسدت في ذلك الطلل، ومن هنا كانت ذات الشاعر قد وقعت وتوقفت ارادها أمام فاعلية المكان، وعدم القدرة على ترميم نفسها، فكان مشهد الطلل عبارة عن قوى هدم لكل فعل يمكن أن تقوم به الذات، لأن اللوحة "الطللية أكثر من تعبير عن الواقع الجاهلي كقائم راهن، لانها تجسد برهة التحول من الماضي الى المستقبل، إذ هي تختزن الماضي كنقيض مباشر للحاضر، وكمطابق صميمي للمستقبل المأمول؛ ولهذا كان الزمن الماضي بصيغتيه الصورية والتحولية معاً دائم المثول في المطلع الطللي للقصيدة ودائم الإتصاف بالانطفاء. أمّا الحاضر نفسه فلا يمثل إلاّ إتضاعاً مرعباً وممجوجاً لا تنكشف جوهريته إلاّ عبر صدمه بالماضي المشرق" (اليوسف، 1985، صفحة 121). وحتى في هذه اللحظة وما دام الشاعر واقفا عند ذلك الطلل لم يستطع المواجهة أو إعادة ترميمه لذاته، فشعرت الذات بالاستلاب الروحي والضعف والوهن الجسدي، فتحققت لحظة الاحساس بالموت المعنوي واليأس أمام قوى الهدم التي أحالت عناصر الحياة الى بقايا رسوم وأسهمت في تعطيل قوى الأمل.

ويجسد الشاعر حاجز الازدي لحظة الشعور بالموت المعنوي والاحساس به في قوله:-

سَأَلْتُ فَلَمْ تُكَلِّمَنِي الرُّسُومُ فَظَلْتُ كأَنَّني فِيها سَقِيمُ
بقارِعَةِ الغَرِيفِ فَذَاتِ مَشْيٍ إلى العَصْداءِ لَيْسَ بها مُقِيمٌ
مَنازِلُ عَذْبَةِ الأنْيابِ خَوْذٍ فَما إن مِثْلُها في النَّاسِ نِيْمُ
فأمْا إنْ صَرَفْتُ فَغَيْرُ بُغْضٍ ولِكِنْ قَدْ تُعَدِّينِي الهُمُومُ
عَدانِي أنْ أزورَكِ حَرْبُ قَوْمٍ كَجَمرِ النَارِ ثاقبةٌ عَذُوم
(البغدادي، 1999، الصفحات 295-298)

نلحظ أن الشاعر عمد إلى إدراج عناصر الموت والدمار التي عصفت بذلك المكان، وإن كانت الوقفة مختلفة عن سابقتها، فوقفته هنا وقفة حب جسدت مشاعر الحزن والأسى، إذ يسرد الشاعر جدلية الصراع القائم بين قطبين رئيسين قامت علاقتها على التنافر وطرفين داخل ذلك المجموع قامت علاقتهما على الود والوئام والانسجام، لكن ذلك لم يدم بسبب انتماء الجزء الى الكل، اذ حدثت القطيعة بين القطبين الرئيسين، وتلك القطيعة أدت الى فقدان التواصل بين الشاعر والمحبوبة، فكان وقوفه الأول عند أطلال محبوبته، وكعادة الشعراء توجه الى معالم طلل المحبوبة بالسؤال، لكن تلك الأطلال وكالعادة صمتت و لم تجب على سؤال السائل، ويبدو أن ثيمة الصراع تشير الى قوة الشر التي تحركت تدريجيا، فقضت على جمالية الحياة

ورموزها النابضة، وأشار صمت الديار اشارة واضحة الى انعدام الحياة ، وحلول معالم الاندثار والسكون فيها، ولا شك في أن ذلك السكون وبحسب ما هو متعارف عليه يعني الموت والتحول والانطفاء، ونتيجة لذلك جسد الشاعر حالة الصراع التي أسهمت في تغيير طبيعة العلاقة بينه وبين المحبوبة، وهو ما حرص الشاعر على تجسيده في مشهده.

لقد فجع الشاعر فجيعة كبيرة بفقدان التواصل مع محبوبته وأسباب ذلك العداء الذي كشف عنه الشاعر في العتبة الاولى من قصيدته، ولا شك أن الفقد بأشكاله كافة يمثل موتا معنويا، وبما أن الشاعر قد فقد عنصر التواصل فإن ذلك أسهم إسهاما مباشرا في تغيير حالة الشاعر من الايجاب الى السلب، وفي هذا المشهد تضافرت عوامل الزمن مع العوامل الاجتماعية في فجيعة الشاعر بمن يحب، فلم يستطع الشاعر توطين الذات والقبول بالواقع، لأنه يشير الى أن ما حدث جعله يعيش نقيضين الأول عدم القدرة على التواصل وعدم القدرة على القطيعة، فظهرت انفعالاته بصورة جلية في هذا المشهد.

إن عوالم الاحساس بالموت المعنوي تبدأ من البيت الأول، إذ إن الكلمات (سألت، و لم تكلمني، وكأني سقيم) تدل دلالة قاطعة على الموت المعنوي فضلا عما تثيره من عوالم الاحساس بالدهشة والانطفاء، ونتيجة لذلك لم يتوقف الشاعر عند هذا الحد، بل سعى الى الكشف عن الاسباب المحيطة والمصاحبة لذلك، فما ظهر هو نتيجة انفعال الشاعر وغضبه تجاه التحولات واحساسه بالفقد.

ب- الاغتراب: فرضت البيئة الصحراوية فضلا عن البنية التكوينية للمجتمع الجاهلي أنواعا مختلفة من البواعث النفسية التي أدت دورا فاعلا في رسم سياسة فردية خاصة وربما مجتمعية في بعض الأحيان، إذ إن الفرد ابتعد بطريقة أو بأخرى عن القبيلة أو السكن الذي يعيش فيه، وهذا الأمر رافقته مجموعة من الارهاصات التي ألقت بكاهلها عليه، وبما أن البيئة أو المجتمع قد فرضت عليه فرضا، فقد ولد ذلك بداخله شعور بالموت المعنوي فصار يشعر بعدمية الحياة ولا جدواها، فضلا عن عدم القدرة على العيش بالصورة التي ينشدها أو يرغب بها.

إن البحث في قضية الاغتراب بوصفه موتا معنويا هنا لا يعني مطلقا الحديث عن المفهوم والاسباب والاليات والأنواع، بل البحث في طبيعة تجسيد الشعراء لصور أدت الى موتهم معنويا، حتى تجلى ذلك الأثر بصورة واضحة، ومما لا شك فيه أن البيئة والعوامل المحيطة بها أدت دورا فاعلا في ظهور هذا المفهوم، وقد تنبه الشعراء الى ذلك فجسدوا أروع الصور التي ظهرت فيها احاسيسهم ومشاعرهم، وقد أشار الأعشى الى ما يعانيه المغترب من آلام وفقدان وضياع وعدم إحساس بالوجود وهذا هو الموت المعنوي بعينه، فقال:-

متى يغتربْ عن قومِهِ لا يجدْ لَهُ	على مَنْ لَهُ رَهْطٌ حواليهِ مُغضَبا
ويُحطَمْ بظُلْمٍ لا يزالُ يرى لهُ	مَصارِعَ مظلومٍ مَجَرّاً ومَسْحَبَا
وتُدْفَنُ منهُ الصالحاتُ وإنْ يُسِيءْ	يكُنْ ما أساءَ النارَ في رأْسِ كَبكَبا
وليسَ مُجيراً إنْ أتى الحيَّ خائفٌ	ولاقائلاً إلاّ هُوَ الُمتَعَيَّبا

(الأعشى، 1950، صفحة 113)

فهو يصور حالة الاستلاب والمعاناة التي يعانيها المغترب خارج اطار قبيلته وقومه، فلا يتمتع بحقوقه ولا يستمع له، ولا يحق له الاجارة، وبلا شك أن ذلك كله يعد من المنغصات التي تجعل الذات تشعر بالموت واللاجدوى من الحياة، لأن الجاهلي يشعر بوجوده عندما يستطيع فعل أشياء تدعو الى الفخر والاعتزاز، ومن دونها فالموت أهون عليه بكثير.

إن مطلع الابيات يكرس حالة شعورية مقترنة بزمنين الأول ما قبل الاغتراب الذي لم يفصح عنه الشاعر صراحة، إنما كشف عنه من خلال الأبيات التي كشفت عن حالة ما بعد الاغتراب، فهو يعبر عن حالة نفسية وفي الوقت ذاته يكشف عن الحالة التي يعيشها المجتمع آنذاك والتي تتمثل في خلخلة النظم الاجتماعية وطريقة تعاملها مع الآخر مما دفع بالشاعر الى البوح بذلك.

ومن الجدير بالذكر ان الكلمات التي وظفها الشاعر للدلالة على الموت المعنوي في النص أعلاه كثيرة ابتداء من المطلع إذ إن (متى يغترب، لا يجد، يحطم، ليس مجيرا، المتعيبا) كلها تدل على الموت المعنوي الذي دفع بالشاعر الى الرضوخ والاستسلام والقبول والتصريح بذلك الواقع، وفي السياق ذاته يعبر الأعشى عن عمق ألمه ومعاناته النفسية، لكن هذه المرة وجه خطابه الى أبناء عمومته غير راض بموقفهم نحوه:-

أرى الناس هرّوني وشهّر مَدْخلي ... وفي كلّ ممشى أرصد الناسُ عقربا
فأبلغ بني سعد بن قيس أنني ... عتبت فلما لم أجدْ لِيَ معْتبا
صَرَمت و لم أصرمكم وكصارمٍ ... أخ قد طوى كشحا وأبّ ليذهبا
ومثل الذي تولونني في بيوتكم يقنّي ... سنانا كالقتدامى وثعلبا
إلى معشر لا يُعرَف الودّ بينهم ... ولا النسب المعروف إلا تنسبا
(الأعشى، 1950، الصفحات 114-115)

لقد كانت فجيعة الأعشى بأبناء قبيلته وعمومته كبيرة جدا، لأن موقفهم أسهم إسهاما مباشرا في ضياع هوياته وهدم كيانه من الداخل، وبدأ مجده الذي بناه يتلاشى وبدأ هو يشعر بالضعف من جانبين جانب الغريب والقريب، وهذا ما أماته معنويا، لأنه لم يستطع العودة الى الوراء ولا التقدم، بسبب الانهيار الذاتي الذي حصل له، مع الأخذ بالحسبان أن ما شاهده من موقف أبناء عمومته كان أقسى وأشد مرارة مما لاقاه من غيرهم.

ويصور عمرو بن هبيرة العبد الشخص الذي يعيش في غير قبيلته أدق تصوير، فقال:-

ومن تك في غير العشيرة داره ... يغضّب فتبرد غير مرضى مغاضبه
يرى كل صوت منهم فوق صوته ... ولا يوجبوا منه الذي هو واجبه
وينكر عليه إن أراب بخطة ... ولا يستطع تنكير من هو رائبه
(البحتري، 1967، صفحة 107)

يكشف النص عن عمق المحنة التي تتعرض لها الذات الانسانية خارج أسوار قبيلتها، مع الاعلان صراحة عن ثقافة الصوت المضاد الذي لا يراعي حرمة و لم يتوان عن الاساءة لها، وحالة الذات التي تشعر بالانكسار والضعف والاستسلام والوهن وصولا الى مرحلة الموت المعنوي، وهذا يعني أن الشاعر يكشف عن أمرين الأول المتمثل باللحظة الحاضرة وما تكتنز من توتر وحالة مأساوية، وصل اليها بحكم الماضي، ولحظة مستقبلية مجهولة، لكنها في الأحوال كلها سيئة ولا يمكن أن تحمل بين طياتها وسيلة من وسائل الخلاص، وذلك ما جعل الذات تشعر باليأس والحرمان.

وبناء على ما تقدم أن مظاهر الموت المعنوي قد تجلت في ظاهرة الاغتراب من خلال الشعور بالاحباط واليأس والخضوع والتذلل، وعدم الرغبة في الحياة، وهناك الكثير من النصوص المعبرة عن ذلك وهي مبثوثة في دواوين الشعراء الجاهليين.

١- الفقد الانساني: تعد قضية الفقد واحدة من القضايا المهمة التي عانى منها شعراء العصر الجاهلي، والسبب في ذلك يعود الى طبيعة العصر وما حصل فيه من متغيرات سياسية واجتماعية وصراعات مختلفة الاسباب والنتائج، فحول حياتهم الى واتر وموتور وقاتل ومقتول، وتنوعت تلك الصراعات بين الفردية والجماعية، فصار حديث الفقد والجرأة في تصوير الحدث من القضايا المهمة جدا، والتي ربما

في كثير من الأحيان لا تقتصر على المفجوع لحاله، بل تشمل أبناء قبيلة برمتها، اذ ليس بالضرورة أن يكون الفقيد أبا أو أخا، فربما يكون سيد قوم، وقد يكون محبوبة رحلت وتركت في نفس صاحبها شعلة متوقدة من الألم والأسى، ولم تقتصر ظاهرة الفقد على فئة دون أخرى من فئات ذلك المجتمع، لكنها كانت أكثر وضوحا عند الرجال، والسبب في ذلك يعود الى حضور صوت الرجل الشعري أكثر من الصوت الانثوي، ولذلك كان صوت المرأة أقل بكثير وأضعف من صوت الرجل، مع الاخذ بالحسبان أن حرارة الفقد نسبية بحسب صلة القرابة بين الفاقد والمفقود، فالفقد الذي يسبب موتا معنويا هو فقد الأخ والابن والزوج، ومن لهم صلة مباشرة بالفقيد.

ومن الجدير بالذكر إن مظاهر الفقد لم يكن واحدة بالمطلق، لأن الفقد من وجهة نظر الشاعر الجاهلي تجلى بصور مختلفة استطاع من خلالها التعبير عن الواقع المأزوم الذي يعيشه من جانب، ومن جانب آخر، أن عناصر الفقد تعلق بعضها ببعضها الآخر، فعلى سبيل المثال لا الحصر اجتمعت علة فقد الأحبة بفقد الشباب، أو علة الاحساس بالغربة والضعف وعلو صوت الاخر بعلة التقدم في السن، وبناء على ذلك جرى تناول هذه العلل تحت محور واحد هو الفقد الانساني بأنواعه، وخير شاهد ودليل على ذلك ما قدمه عمرو بن قميئة في قوله:-

كبرت وفارقني الأقربون　　وأيقنت النفس أن لا خلودا
وبان الأحبة حتى فنوا　　ولم يترك الدهر منهم عميدا
فيا دهر قدك اسجح بنا　　فلسنا بصخر ولسنا حديدا

(قميئة، 1965، صفحة 188)

لقد جمع عمرو بن قميئة أكثر من مظهر وعلة أوصلته الى حالة الضعف والوهن والاستسلام حتى بدا راجيا متألما واهن القوى وهي (كبرت، وفارقني، وأيقنت، وبان الأحبة، ولم يترك الدهر)، وكل كلمة من الكلمات لها دلالة، وان كان المفتاح البنائي للبيت الشعري هو الكبر، فبسبب تقدمه بالسن شاهد مظاهر التحول التي غيرت مسار كثير من الاحداث، فصار لديه إدراك حقيقي باتجاهه نحو الموت مستقبليا والشعور بالموت المعنوي ذاتيا بفعل العوامل المحيطة به.

وفي سياق متصل نجد أزمة أبي ذؤيب الهذلي أشد وطأة وأكثر تأثيرا على الذات بفقدانه أبنائه، ليضطر بعد ذلك الى الكشف عن أزمته التي حولته من حالة الى حالة أخري، فقال:-

أَمِنَ المَنونِ ورَيبِها تتوجَّع　　والدّهرُ ليسَ بِمُعتبٍ مَنْ يَجزعُ
قالت أُميمةُ ما لِجسمِكَ شاحباً　　مُنْذُ ابتذَلتَ ومثلُ مالكَ ينفعُ
أم ما لجنبِك لا يُلائمُ مَضْجَعاً　　إلّا أقضَّ عليكَ ذاكَ المضْجَعُ
فأجَبْتها أن ما لِجسْمي أنهُ　　أوْدى بَنّي مِنَ البلادِ ووَدَّعُوا
أوْدَى بنيّ وأعقبُوني حسْرةً　　بعدَ الرُّقادِ وعَبْرَةً لا تُقْلِعُ
ولقد أرى أنّ البُكاءَ سفاهةٌ　　ولسَوْفَ يُولَعُ بالبُكا مَنْ يُفْجَعُ
سَبَقُوا هوىً وأعنقوا لِهَواهُمُ　　فتخرّمُوا ولِكُلّ جَنْبٍ مَصْرَعُ
فغبرت بعدهمُ بعيشٍ ناصبٍ　　وأخال أنّي لاحقٌ مُسْتَتْبَعُ
ولقد حرصتُ بأن أُدافِعَ عنهمُ　　فإذا المنّيةُ أقبلتْ لا تُدفعُ
وإذا المنيةُ أنشبتْ أظفارَهَا　　ألفيتَ كُلَّ تميمةٍ لا تنفَعُ

(السكري، د.ت، صفحة 32/1)

إنها صور حقيقية نابضة بالحياة لجسد ميت سريريا ومعنويا، لم يعد يشعر بما يشاهد ويرى، ولم يغره شيئا من ملذات الحياة ومباهجها، لهول مصابه وعظمته، إذ جعله في معرض التساؤل عن السبب الذي يقف وراء ذلك التحول مع علم الآخر بعظم المصاب، لكن الاشكالية الحقيقية التي أوجعت الشاعر كثيرا وآلمته هي خصمه المتمثل بالدهر،"لأنّ الدهر هو الخصم الألد الذي لا قبل لنا به والذي لا تبدو له

سورة فتقع عليه يدنا وتصيبه سهامنا. أمره نافذ بذاته وهو يخني على الجميع فيحنون به هاماتهم" (حاوي، 1986، صفحة 413/1).

ويجسد زهير بن أبي سلمى فاعلية الدهر وقوته في قصيدة قالها اثر فقدان أحبته، ووقوفه موقف العاجز المتحسر والمتألم الذي شلت حركته ولم يستطع المقاومة والوقوف بوجه من سلبه أحبته، فجعله يشعر بالموت المعنوي، فقال:-

فاستأثر الدهر ، الغداة بهم ... والدهر يرميني ، ولا ارمي
لو كان، لي قرنا أناضله ... ما طاش عند حفيظة سهمي
أو كان يعطي النصف قلت له: ... أحررت قسمك، فاله عن قسمي
يا دهر، قد أكثرت فجعتنا ... بسراتنا، وقرعت، في العظم
وسلبتنا، لست معقبه ... يا دهر، ما أنصفت في الحكم
أجلت صروفك، عن أخي ثقة ... حامي الذمار، مخالط الحزم
ينمي إلى ميراث والده ... كل امري لأرومة، ينمي

(سلمى، 2008، صفحة 282)

إن الصور التي جاء بها الشاعر انما تعبر تعبيرا حقيقيا عن الاحساس بحالة الضعف والوهن والانكسار، والشاعر هنا يجسد((اللحظة الحرجة التي تبدأ بها القصيدة الجاهلية، فالشاعر يحزن لهذا الفراق المحتوم ويتذكر الصداقات التي كتب عليها تمزق الشمل ، ويتذكر بنوع خاص علاقات الحب او المغازلة التي جمعته بفتاة او فتيات من نساء القبيلة الاخرى)) (النويهي، د.ت، صفحة 151/1)

ونواجه إصرار عنترة بن شدّاد على عدم الرضوخ للواقع مما أدى إلى انهياره وتخبطه قبال المحبوبة عبر صيغة (الرفض والقبول)، قائلاً:-

أَتاني طَيفُ عَبلَةَ في المنامِ ... فَقَبلني ثَلاثاً في اللثامِ
وَوَدَّعَني فَأَودَعَني لَهيباً ... أُسَتِّرُهُ وَيشعُلُ في عِظامي
وَلَولا أَنَّني أَحلو بِنَفسي ... وَأُطفِئُ بِالدُموعِ جَوى غَرامي
لَمُتُّ أَسىً وَكَم أَشكو لأَنّي ... أَغارُ عَلَيكِ يا بَدرَ التَمامِ
أَيا ابنةَ مالِكٍ كَيفَ التَسَلّي ... وَعَهدُ هَواكِ مِن عَهدِ الفِطامِ

(شداد، 1964، صفحة 187)

تبدو تجربة الحرمان واضحة بشكل جلي، إذ إن الشاعر لجأ الى التعويض من خلال الاستعانة بالطيف بسبب ما تعرض له من قبل أبناء القبيلة، لأنها وبحسب ما تعتقد وضعته في مرتبة أدنى ليس المرتبة التي يستحقها، وهذا يعني أن الشاعر يعاني من سببين جعلاه يتألم ويشعر بالموت المعنوي وهما عقدة السواد ونظرة المجتمع إليه، وفراق المحبوبة وعدم القدرة على التواصل معها.

إن نظرة سريعة وأولى للنص تجعلنا نكتشف معناة الشاعر التي أفصح عنها من خلال التعبير المباشر باستعمال الألفاظ الصريحة المتمثلة ب (ودعني، أودعني لهيبا، يشعل عظامي، أطفئ بالدموع جوى غرامي، أغار عليك، كيف التسلي)، فكلها تدل على المعاناة والاحساس بالضياع، فيقضي ساعات الأسى وانهمار الدموع مستحضرا خيال المحبوبة كصورة رمزية لها، فلم يبق لها سوى الذكريات التي تجبر الشاعر على عدم النسيان، وإن إحساس عنترة بن شداد بالقهر وعدم القدرة على التواصل مع المحبوبة جعله يبتدع صورة وهمية ليعبر بها عما يختلج في نفسه من مأساة وخواء نفسي، وعليه لولا انشغاله بالذكرى لمات موتا حقيقيا، فكانت الذكرى هي الوسيلة الوحيدة والتعويذة التي تبعد عنه الموت الحقيقي، وتبقيه في دائرة الموت المعنوي.

أما علقمة الفحل فصورة الموت المعنوي تقترن أو تكاد تكون الوجه الآخر للموت الحقيقي، لأنها تسهم إسهاما فاعلا في تغيير مسار الأحداث:-

هلُ ما علمت وما استودعت مكتومُ أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم
أم هل كبيرُ بكى لم يقض عبرته ... إثر الأحبة يوم البين مشكومُ
لم أدر بالبين حتى أزمعوا ظعناً ... كلَّ الجمالِ قبيل الصبح مزموم

(الضبي، 1942، صفحة 398)

فاقتران الفراق بالبين يحمل اشارات صريحة على إنه يقترن بالموت الحقيقي ولا يقل شأنا عنه، إذ يكشف عما تولد في داخله من إحساس بالفجيعة برحيل أحبته، وتكشف الأبيات عن سلطة قمعية أثرت باتجاهين الأول باتجاه الشاعر إذ أقلقت وجوده والثاني كانت السبب المباشر برحيل الأحبة وخلو المكان وتحويله من حالة نابضة بالحياة والحب والاحساس بالوجود، فكانت تلك السلطة عامل موت معنوي فاعل وأداة من أدوات الموت.

إن إمارات الموت وصوره تبدو واضحة من خلال استعمال الشاعر للألفاظ الدالة على ذلك، فعلى سبيل المثال استعمل الشاعر الصرم والبكاء والبين والفراق ليقدم صورة دالة على الاحساس بالفقد والتغير

فهذا عروة بن الورد نظر إلى مكان فارق فيه زوجه فيثير في نفسه الذكريات الحزينة ومشاعر من الأسى والحزن فقال:-

أَلَمْ تَعْرِف منازلَ أُ مِّ عَمْرُو ... بِمُنْعَرِج النَّواصِفِ من أبانِ
وَقَفْتُ بِها فَفاضَ الدَّمْعُ منّي ... كَمُنْحَدِرٍ منَ النِّظمِ الجُمانِ
وَلَكِنْ لا يلبثُ وصْلُ حَيٍّ ... وَجِدَّةَ وَجْهِهِ مَرّ الزَّمانِ

(البغدادي، 1999، صفحة 249/1)

ويعبر طرفة بن العبد عن حاله واحساسه بالموت المعنوي، ليكشف عن صراع سرمدي طويل جعله حيا في أرض الواقع لكنه ميت معنويا، فلم يستطع الخروج من أزمته، فقال:-

أرقت لهم أسهرتني طوارقه ... وساعدني دمعي ففاضت سوابقه
وبتُّ أراعي النجم لا أطعم الكرى ... كأني أسير طائر القلب خافقه
يعالج أغلال الحديد مكبلا ... وقد عدن بيضا كالثغام مفارقه
و لم أبك طيفا زار وهنا خياله ... ولا شادنا في الخدر كنت أعانقه
ولا شاقني ربع خلا من أنيسه ... فأضحت به آرامه وزقازقه
ولا حلت أضغانا، وبت مسهدا ... لأن الفتى ما عاش فالله رازقه
ولكن دهرا ضاق بعد اتساعه ... وجاءت أمور وسعتها مضايقه
مضى سلف أهل الحجا منه والتقى ... ولاخير في دهر تولت غرانقه
فلم يبق الا شامت بمصيبة ... وذو حسد ما تستقيم طرائقه

(العبد، 1975، الصفحات 172-173)

يجسد الشاعر حالة صراع حقيقي بين الاحساس بالحياة والشعور بالموت المعنوي الذي رافقه طوال الابيات، والذي أعلن من خلاله عن شعور كبير بالاحباط واللاجدوى، بسبب تعرضه الى مجموعة من المنغصات التي حولت حياته الى يأس كبير نتج عنه الرغبة بالبكاء للتعبير عن الأزمة التي يمر بها تلك الأزمة التي لا يمكنة أن تنتهي عند حد معين بدلالة استعماله كثير من الأفعال المضارعة الدالة على الحال والاستقبال، فضلا عن توظيفه لزمن الليل الذي مثل الانعكاس الحقيقي للذات وما تعانيه من مرارة وحزن، هذا من جانب، ومن جانب آخر، أن الليل صار أداة ووسيلة مساعدة لتطبيق قسوة الحياة وحرمان الشاعر من لذة الاحساس بالراحة والهناء، ومن الجدير بالذكر أن نص الشاعر خلد ظاهرة الموت المعنوي بأوضح صورها، إذ إن المتلقي لم يجد أي إشارة صريحة أو مضمرة الى وجود أمل قادم، أو احساس بالعودة الى الحياة الطبيعة التي يحياها الناس، حتى أن الشاعر أغلق جميع منافذ الخلاص، والاسباب التي دفعته الى ذلك أكبر من أن تكون حبيبة راحلة أو فراق إمرأة معينة أو الخوف من العدم، إنما كان احساسه بالموت المعنوي جراء فعل الدهر به، إذ خطف منه أحب الناس اليه وهم اصحاب الفكرة والرأي السديد، حتى شعر بعدم وجود قانون طبيعي ينظم الحياة، وقد أدرك ذلك لعلمه بحتمية المصير وعبثية الحياة، فلا شيء "يعادل الوعي بالموت سوى الوعي بالزمن، الذي يتعامد على دلالة الموت، أو الذي تتعامد عليه دلالة الموت، الزمن الذي يضع البشر الفانين، والطبيعة المتغيرة مقابل الأيام الثابتة المتكررة، والذي

يفرض نفسه على علاقة البشر بالوجود" (عصفور، 2011، صفحة 95)

ومما يتصل بظاهرة الفقد الانساني التحول الزمني الذي يتحول فيه الشخص من مرحلة الى مرحلة أخرى، ومن طقس الى طقس آخر، فتظهر ملامح التغير والتبدل بصورة جلية واضحة يشعر بها الجميع، ويكون الاحساس فيها يختلف بين شخص وآخر، وهذه الظاهرة هي ظاهرة الضعف والانكسار: فهناك الكثير من العوامل التي أسهمت إسهاما في اضعاف الانسان وتحويله من حال الى حال أخرى فاعلا ترك الشيب أثرا نفسيا فاعلا مؤلما في ذوات الشعراء، فدفعهم الى الاحساس بالنقص وعدم القدرة على الحياة والتعاطي معها بصورة طبيعية وفقا لما يقتضيه الموقف والسياق العام، ويبدو ان الانتقال من مرحلة الى مرحلة أخرى يعد من أصعب وأشد المواقف على الانسان في كل شيء، لأنه يجد فيه قضايا مختلفة لم يكن قد تنبه لها من قبل، ومرحلة التحول الزمني والانتقال من مرحلة الشباب الى مرحلة الشيخوخة والضعف مرحلة يمكن أن نصفها بخيانة المرحلة لصاحبها، فالشباب مفارق لا محالة والضعف والوهن آت، وأي خيانة تلك، إنها خيانة الصحة لصاحبها، وقد جسد شاعرنا زهير بن سلمى ذلك بحكمة ودراية بقوله :

سئمتُ تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبالك يسأم

(سلمى، 2008، صفحة 34)

إذ قرن تقدم العمر بالسأم والملل وهذا هو الموت المعنوي بذاته وعليه فقد شكل تقدم العمر عامل موت معنوي كبير لصاحبه لأسباب أهمها:-

١- مغادرة مرحلة القوة وحلول مرحلة الضعف.

٢- الشعور بالنقص أمام الآخر، لأنه يعتقد بأن الجميع صاروا أقوى منه.

٣- الشعور بالضياع.

٤- هجر الغواني والنساء له، وهذا يعد من أشد الأمور قسوة عليه نتيجة ما يلاقيه من صدود واعراض.

٥- النكوص والعودة الى الماضي عله يجد فيه وسيلة ناجعة للتخفيف عن ألم الحاضر.

٦- الشعور بالحيرة والندم على ما مضى، وهذا الأمر أسهم اسهاما فاعلا في موت الشاعر معنويا.

ان الاسباب أعلاه وغيرها كانت مدعاة للشعور بالانكساء وانطفاء شعلة الحياة، وربما كان الموت في حينها أفضل بكثير من الحياة التي يعيشها الشاعر بمفرده، لأن التجربة التي يمر بها تجربة فردية وشعورها فرديا لا يشعر به الا من عاشه أو مر به، مع ملاحظة فاعلية هذه التجربة بوصفها تجربة جماعية يمر بها جميع من يصل الى مرحلة الشيخوخة.

إن صورة الاحساس بالموت المعنوي والبكاء على التحول لا يعد بكاء اعتياديا أو ظاهرة آنية يعبر من خلالها الشاعر عن أحاسيس ورغبات قد فقدها مؤقتا، بل هو بكاء على شيء مات بداخله وماتت معه كل الامنيات التي كان يرجوها او يتمنى أن تبقى معه ما دام على قيد الحياة، وليس هنالك أصعب من ذلك الموقف الذي يتجسد بمعية الموت الحقيقي، فضلا عن ذلك أنه يمثل مشكلة حقيقية لأنها ارتبطت في أذهاننا بمعاني التحقيق والانتهاء وفوات الأوان، لأن التحول من حال الى أخرى يجعل الفرد أمام معادلة صعبة، فالتحول من الشباب الى المشيب يضعنا أمام إشكالية كبرى تشعرنا بفقدان عنصر اللذة وفاعلية الزمن وقدرته ، وعليه فإن المشيب " مُصابٌ جلل لا يقل سوءاً عن الموت؛ إذ تتوقف حياة العاجز عن أداء الفعل كما كان سابقاً؛ لأنه بات محط استنكار، وفي مواقع مواجهة مشاق الحياة

وتحدياتها وصعابها، وبهذا يغدو الشباب ضمانة الحياة" (قادرة، 2018، صفحة 197).

كقول مُجمِّع بن هلال:-

إنْ أُمسي شَيخاً قد بَليتُ فَطَالما عمرتُ ولكن لا أرى العَيشَ ينفعُ
مَضتْ مئةٌ من مَولدي فَنضيْتُها وعَشْرٌ وخَمْسٌ بعد ذاك وأربعُ
فيا رُبَّ خَيلٍ كالقَطا قَدْ وَزَعْتُها لها سَبَلٌ فيها المَنيّةُ تَلمَعُ
شهدتُ وغَنْمٍ قد حَوَيْتُ ولذّةٍ أصَبتُ وما ذا العيشُ إلّا تَمتُّعُ

(السجستاني، 2020، صفحة 41)

ف "القضية تقض مضجعه، ومازال حزنه يمنعه النوم حين ينام الناس جميعاً، فيبدو أشدهم انشغالا بقضية المصير لأنه يدرك أنه صائر إلى فناء كما ذهب أبناؤه جميعاً، وأمامه غابت كلّ الذوات" (التطاوي، 2003-2004، صفحة 185/1).

ويقول عدي بن زيد

نزل المشيب بوفده لا مرحبا ورأى الشباب مكانه فتجنبا

ضيف بغيضٌ لا أرى لي عصرة منه هربت فلم أجد لي مهربا

بدلت بالعيش اللذيذ ونعمة إلى عمرين هماً شاهدا ومغيبا

ولقد يصاحبني الشباب فلم أكن آتي إلا الفعال الأصوبا

ولقد حفظت مكانه ورعيته وجعلته مني الأحبّ الأقربا

(العبادي، 1965، صفحة 113)

نلحظ أولى تجليات الانهيار المعنوي في المدخل الذي دخل به الشاعر الى جو القصيدة العام، وهذا ما يفصح عن أزمة حقيقية وتحول غريب من حال الى حال آخر، وحتى تبدو سطوة الزمن وفاعليته وقدرته على فرض ارادته ما يظهره الشاعر من استسلام صريح عن طريق توظيف عنصر الاستعارة (ورأى الشباب مكانه فتجنبا)، ولا شك أن الشخصية شخصية الشاعر وبسبب فاعلية الحدث وقوته لم تستطع الخروج من دائرة اليأس، بل نجده يزداد بؤسا وشقاء نتيجة ما حل به ونقله من حالة الاحساس بالحياة الى حالة الاحساس بالموت المعنوي، إذ إن الألفاظ (بدلت، ضيف ثقيل، لم أجد مهربا،هما شديدا) تدل على انطفاء شعلة الأمل وامحاء شخصية الفرد، فلا تميز ولا تفوق ولا قدرة على المواجهة بعد الحين.

إن فقدان الاحساس بالقدرة على المواجهة والاستسلام للحدث يدل دلالة قاطعة على موت الشاعر معنويا ويتضح ذلك من خلال الموازنة بين زمنين مختلفين هما الماضي والحاضر، فالماضي يمثل النعيم واللذة والاحساس بالحياة، والحاضر المأساوي الذي فجع به الشاعر، ولم يستطع الوقوف أو الصمود أمامه، وما يؤكد الفكرة هو في عودته الى الماضي لم يكن بقصدية الصمود مطلقا، أو محاولة اعادة ترميم الذات، بل هي تأكيد فاعلية الحاضر والشعور بالموت المعنوي، فضلا عن ذلك إن ما قام به الشاعر في رصده للصور، فهو لم يرصد صورا حية للحاضر، بل رصد صورا ميتة له.

ويصور عمرو بن قميئة مرحلة الضعف والوهن التي وصل اليها فيقول:-

كأني وقد جاوزت تسعين حجّة خلعت بها يوما عِذار لجامي
على الراحتين مرّة وعلى العصا أنوء ثلاثا بعدهنّ قيامي
رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى فكيف بمن يُرمى وليس برام
فلو أنها نبلٌ إذا لاتقيتها ولكنني أرمى بغير سهام

(قميئة، 1965، الصفحات 38-39)

يكشف عمرو بن قميئة عن أمر مهم يتمثل بسلطة الدهر وسطوته وفاعليته في القضاء على كل فعل من دون أن يترك للانسان رد فعل عليه، لأن الانسان بطبيعته ربما يبحث عن المواجهة والرغبة في عدم الرضوخ والاستسلام، لا سيما اذا كان بالامكان مواجهة خصمه، لكن الشاعر في هذه اللحظة أقر بضعفه، فصار الدهر يمثل القوة الحقيقية التي تسعى الى موت الشاعر والقضاء عليه، بعد تحقيق أولى خطوات الاستسلام المتمثل بالموت المعنوي، بدلالة (رمتني

بنات الدهر، لاتقيتها، أرمى بغير سهام)، فهو الان يتعرض للقتل، لكن المفارقة تكمن في أن ذلك القتل لم يكن في مواجهة مع عاقل أو في معركة حقيقية، إنما في منازلة من طرف واحد هو الدهر، وهو العنصر الوحيد الفاعل في ذلك "فالشاعر اذن يعبر عن احساس عميق بالغموض في حديثه عن الدهر، وهو غير قادر على معرفة كنه الدهر لكي يتحداه ويواجهه، ولذلك فقد فشل الشاعر عندما حاول أن يجعل الدهر أو صروفه شيئا ماديا محسوسا "فلو أنها نبل" وهذا الفشل يعكس للمتلقي استسلام الانسان الجاهلي لسلطة الغيب...والاقرار بانتصار الدهر من خلال آثار الغيب" (عليمات، 2004، صفحة 122)

ويشعر دريد بن الصمة بمرارة الموت المعنوي بسبب كبر سنه، وعدم الاعتداد به، على الرغم من كونه من الفرسان وعلية القوم، فيقول:-

أَصْبَحْتُ أَقْذِفُ أَهْدَافَ الْمَنُونِ كما   يَرْمِي الدَّرِيئَةُ أَدْنَى فُوقَةِ الوَتَرِ
في مَنْصِفٍ من مَدَى تِسْعِين من مِائَةٍ   كَرَّمْيَةِ الكَاعِبِ العَذْرَاءِ بِالحَجَرِ
في متزل نازح م الحَيُّ مُنْتَبَذ   كَمِرْبَطِ العَيْرِ لا أُدْعَى إلى خَبَرِ
كأَنَّنِي . خَرَبٌ قُصَّتْ قَوَادِمُه   أو جُثَّةٌ من بُغَاتٍ في يَدَى هَصِرٍ
يمضون أَمْرَهُم دُونِي وما فَقَدُوا   مِنى عزيمة أمرٍ مَا خَلا كَبِرِي
ونَوْمَةٍ لَسْتُ أَقْضِيها وإِنْ مَتَعَتْ   ما مَضَى قَبْلُ مَن شَأْوِى ومن عُمْرِي
وإنني رَابَنِي قَيْدٌ حُبِسْتُ به   وقد أكون وما يمشى على أثرى
إنَّ السَّنِينَ إِذا قَرَّبْنَ من مائَةٍ   لَوَيْنَ مِرَّةَ أَحْوَالٍ على مِرَرِ
(الصمة، 1985، الصفحات 103-105)

ومن الصور الطريفة التي لا تخلو من المفارقة، ما رسمه زهير بن جناب الكلبي، حين شعر بالجفاء من قبل زوجته التي باتت لا ترعى له حرمة ولا تتوارى عن تذكيره بضعفه، ولم تتوقف عند هذا الحد، بل صارت تعنفه، فقال:-

ألا يا لقومي لا أرى النجم طالعا   من الليل الا حاجبي بيميني
معزبتي عند القفا بعمودها   يكون نكيري أن أقول: ذريني
أمينا على سر النساء وربما   أكون على الأسرار غير أمين
وللموت خير من حداج موطأ   مع الظعن لا يأتي المحل لحين
(حالو، 2010، صفحة 32)

فالشاعر يعاني من ضغوط نفسية واجتماعية وسوء معاملة، بسبب تغير الزمن وما أصابه من الضعف والوهن والفتور، إذ أصبح أقرب الناس اليه المتمثل بزوجته يعامله بقسوة، وصلت الى الضرب وهذا ما أفصح عنه الشاعر في البيت الثاني، وإذا كان المعلن هذا، فإن المضمر أشد قسوة وأكثر ألما، لأنه يمثل حالة الهدم التام للذات، وتحولها من حالة الى حالة أخرى.

١- فكرة التحريم: رسخت في ذهنية العقل الجمعي للمجتمع الجاهلي مجموعة من الأفكار والطقوس والشعائر التي غيرت الكثير من المسارات الحياتية التي يسير عليها المجتمع برمته، ومن هذه المعتقدات ما يتعلق بقضية الثأر وما يصحبه من طقوس وشعائر لا تبيح للشاعر ممارسة حياته بصورة طبيعية، ولا أريد الدخول في تفاصيل تلك الأفكار والمعتقدات بالقدر الذي أريد أن أبين من خلاله أن تلك الطقوس والشعائر أسهمت إسهاما مباشرا في تغيير مسار تفكير الفرد وعدم تواصله وتعاطيه مع الحياة بصورة طبيعية، لاسيما تلك العادات التي يحرمها على نفسه وهي قد تمثل قمة نشوته في الحياة , فحين يبتعد عنها ويقصيها من حياته يشعر أنه قد غادر الحياة بكل مباهجها وإن كان لم يغادرها فعليا مع الأخذ بالحسبان أنها تمثل "العيد الأول في حياة العربي هو عيد الجسد حيث تتوحد الشهوة واللذة والنشوة، فالشاعر العربي دائم الصلاة وهذه آيات صلاته" (ادونيس، 1979، صفحة 20) وحين يبتعد الشاعر عن ذلك، فإنه فقد الاحساس بالحياة ونشوتها، وبما إن قضية الثأر واحدة من القضايا التي جعلت الفرد ينأى عن أمور حياتية طبيعية كان يمارسها قبل أن يتحول الى موتور أو مبتلى بقضية

معينة، فإن ذلك الابتعاد يعد موتا معنويا يقترب في بعض الأحيان من الموت الحقيقي، لأن الشاعر في قضية التحريم وعلى وفق ما يعتقد ترك ملذات الحياة جميعها، ويصبح صاحب قضية لابد له من الحصول على ما يبتغيه حتى يعود الى سابق عهده، ويعد المهلهل بن ربيعة خير من جسد هذه الفكرة أروع تجسيد في بعض نصوصه الشعرية، التي قالها بعد مقتل كليب، وفي احدى قصائده يجسد فكرة الموت المعنوي بصورة جلية، اذ يقول:

خذ العهد الأكيد علي عمري بتركي كل ما حوت الديار
وهجري الغانيات وشرب كأس ولبسي جبة لا تستعار
ولست بخالع درعي وسيفي الى أن يخلع الليل النهار
والا أن تبيد سراة بكر فلا يبقى لها أبدا اثار

(ربيعة، د.ت، صفحة 34)

تتجسد مظاهر الموت المعنوي في البيتين الأول والثاني، لأن الثقافة التي اعتاد عليها المجتمع أن الخمر ومواصلة الغانيات هما من أوضح الدلائل على العيش والاحساس بالوجود والتفاعل مع الحياة، وما يؤكد ذلك قول طرفة بن العبد في معلقته:-

وَلَوْلاَ ثَلاثٌ هُنَّ مِنْ حاجة الفتى وَجَدِّكَ لَمْ أَحْفِلْ مَتَى قَامَ عُوَّدِي

فَمِنْهُنَّ سَبْقِي العَاذِلاتِ بِشَرْبَةٍ كُمَيْتٍ مَتَى مَا تُعْلَ بِالمَاءِ تُزْبِدِ

وكَرِّي إِذَا نَادَى المُضَافُ مُجَنَّباً كَسِيدِ الغَضَا نَبَّهْتَهُ المُتَوَرِّدِ

وتَقْصِيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ والدَّجْنُ مُعْجِبٌ بِبَهْكَنَةٍ تَحْتَ الطِرَافِ المُمَدَّدِ

(العبد، 1975، الصفحات 45-47)

لكن المهلهل قرر الابتعاد عن كل ما يشعره بالحياة وطيبها، والتفكير بالطريقة التي ينتقم بها وما يؤكد ذلك الاستثناء الوارد في البيت الرابع الذي يشير فيه الى العودة المشروطة للحياة والمتمثلة بالابادة الجماعية والانتقام من قبيلة بكر برمتها.

إن جدلية الحياة الحقيقية التي هجرها الشاعر ومرحلة الابتعاد عن الملذات التي تعد من تجليات الموت المعنوي بحكم الطبيعة المفروضة على الشاعر تتأسس عبر نسقين مختلفين يجسد كل واحد منهما آلية مختلفة عن الأخرى، إذ إن الابتداء بفعل الأمر (خذ) يشكل مفتاحا بنائيا أوليا بنيت عليه حالة تامة من التحول ومما يثير الانتباه أنه استعمله بطريقة ذكية جدا، فالخطاب الصادر من المهلهل جاء على شكل مفارقة، لأن الذي قطع على نفسه العهد هو حي أما العهود له فهو ميت، وهنا خلخل الشاعر النسق الطبيعي، فكان بامكانه الانتقام من دون أن يقطع عهدا على نفسه، ومن هنا استطاع الشاعر أن يحقق حالة الانسجام مع الأموات، في حين في الوقت ذاته قطع علاقته مع الأحياء.

ومن الصور الطريفة التي جسدت فكرت تحريم الخمر على الذات ما ورد في شعر قيس بن الخطيم في سياق الفخر، اذ قال:-

ومنا الذي آلى ثلاثين ليلة عن الخمر حتى زاركم بالكتائب
ولما هبطنا الحرث قال أميرنا حرام علينا الخمر مالم نضارب
فسامحه منا رجال أعزة فما برحوا حتى أحلت لشارب

(الخطيم، 1967، الصفحات 91-95)

فالشاعر يشير الى ثقافة التحريم اشارة صريحة وواضحة، بل ويفخر بأن منهم من قصع وصاله بها لسنوات عدة حتى أدرك ثأره، وحينذاك عاد الى ممارسة حياته الطبيعية وعاد الى عادته بدليل حليتها له بحسب ما أشار اليه، وليس ببعيد من ذلك قول دريد بن الصمة:-

شلت يميني ولا أشرب معتقة إذ أخطأ الموت أسماء بن زنباع

(الصمة، 1985، صفحة 132)

فهو يشير بصورة صريحة الى العقيدة التي يتبناها مستعملا صيغة الدعاء في حال عدم الوفاء بوعده واسترداد ثأره.

ومن المعتقدات المتصلة بثقافة التحريم التي أشرنا اليها آنفا عدم الاقتراب من النساء وحتى الزوجات منهن، على الرغم من أن ذلك الفعل هو وسيلة من وسائل ديمومة الحياة واستمراريتها، فهذا عصمة بن حدرة، يصور حالين مختلفين الأول بُني على فكرة التحريم وعدم التواصل مع النساء والثاني عودته الى الحياة مجددا بعد ادراكه لثأره، فقال:-

الله أمكنني من عبس ساغ شرابي وشفيت نفسي
وكنت لا أقرب طهر عرسي وكنت لا أشرب فضل الكأس
ولا أشد بالوخاف رأسي (المرزباني، 2005، صفحة 157)

إنها إشارة صريحة الى حالتين مختلفتين الأولى الابتعاد عن الحياة وملذاتها، وعدم الاحساس بها قبل إدراك المبتغى، وهذه هي فترة الموت التي عاشها الشاعر، والثانية العودة الى الحياة مرة أخرى، وهذا ملمح مهم وعلامة فارقة تدل على رفض الشاعر بالاستمرار بهذه الحال ومقاومة الاحساس بالموت المعنوي، فهو لم يستسلم له.

إن الشاعر يقدم صورة حقيقية عما يعتقد به، وعن أثر الثقافة التي يعتقد بها المجتمع ويطبقها تطبيقا واقعيا في حياته اليومية.

وليس ببعيد عن ذلك قول عبد الله بن ثعلبة:-

أأخضب رأسي أم أطيب مفرقي ورأسك مرموس وأنت سليب
نسيبك من أمسى يناجيك طرفه وليس لمن تحت التراب نسيب
(الاندلسي، 2019، صفحة 137/2)

فهو يقدم صورة واقعية لثقافة التحريم التي أصبحت عرفا سار عليه المجتمع الجاهلي، وهذا العرف هو قانون الثأر الذي يمنع التنعم بالحياة ومظاهرها قبل إدراك المبتغى، وممارسة الحياة بصورة طبيعية تعد مثلبة بحق الموتور، لأنها وبحسب وجهة نظرهم لون من ألوان الدعة والهوان، وعدم القدرة على إدراك الثأر وتحقيق المبتغى، ولا بد للموتور أن يبقى بعيدا عن الحياة الحقيقية مادام لم يسترد ثأره.

لقد قدم شعراء العصر الجاهلي أروع الصور وأبرعها حين باحوا بما في نفوسهم من مشاعر حقيقية حولتهم من حال الى حال أخرى، وربما إذا أجيز لنا القول بعدم سلامة شاعر من الشعراء ما لم يصب بسهام هذه المرحلة، ونتيجة لذلك تولدت عند بعضهم عقدة كبيرة تمثلت بالرغبة في الانتقام ورسم صور الدماء التي تسيل أثناء المعركة، والشواهد على ذلك كثيرة،

*** الخاتمة ونتائج البحث**

إن البحث في قضية الموت المعنوي واحدة من القضايا المهملة التي شغلت حيزا واسعا وكبيرا في نتاج شعراء العصر الجاهلي، والسبب في ذلك يعود الى إن هذه الظاهرة فيها الكثير من البواعث التي يشترك بها الشعراء لا سيما فيما يتعلق بالبيئة والدهر وتقلباته، وبعد استقراء النصوص الشعرية وتحليلها توصل البحث الى ما يأتي:-

١- اختلفت المواقف التي أفصح فيها الشعراء عن موقهم المعنوي من شاعر لآخر بحسب الموقف والحادثة، فلم تكن بمستوى واحد تبعا للباعث والمؤثر.

٢- مثل التحول المكاني سببا مباشرا من أسباب الموت المعنوي الذي دفع الشاعر الى الشعور بغصة كبيرة لم يستطع تجاوزها، لأنها أثارت بداخله ذكريات كثيرة من جانب،

فضلا عن ذلك أنها جسدت حالة الموت والانطفاء في الزمن الحاضر، ومن جانب آخر مثلت نقطة تحول فارقة ومفارقة للحظتين مختلفتين شكلتا نقطة تحول جديدة باتجاه المستقبل.

٣- الانكسار والشعور باليأس والاحباط الذاتي من ثيمات الاحساس بالموت المعنوي، وهذه عوامل طبيعية، لأن لحظة الضعف تتولد عنها انكسارات كبيرة تلقي بكاهلها على حياة الفرد برمتها.

٤- لم يكن الاحساس بالموت المعنوي والشعور به دائميا، بل كان مؤقتا، ينتاب الشاعر لفترة محدودة يعود بعدها الشاعر الى الحالة الطبيعية، ويمارس حياته على أتم وجه، وهذا يعني أن أثر بعض العوامل على الذات أثرا مؤقتا، فيزول عامل الاحساس به بزوال المؤثر.

٥- شكلت عوامل الضعف والوهن أزمات نفسية واجتماعية كثيرة، أماتت الشاعر معنويا، لأن آلامها من جهتين المجتمع والذات، فكلاهما شكل ضغطا نفسيا أجج المعاناة والألم ودفعته الى الخضوع والاستسلام، لأنه شعر بعدم جدوى المواجهة، أو أن المواجهة خاسرة، فعليه الخروج بأقل الخسائر وهي أكبرها في ذات الوقت.

٦- بعض الشعراء حاول مقاومة الإحساس بالعجز وجابه فكرة الموت المعنوي، فليس كل من واجه هذا النوع من الموت استسلم وانقاد له.

*** المراجع**

أشكال الصراع في القصيدة العربية ، د.عبد الله التطاوي، مكتبة الانكلو المصرية، الطبعة الاولى، 2003-2004..

جدلية الوجود والعدم قراءة في مضمر الخطاب الشعري الجاهلي، غيثاء قادرة، دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع، 2018

جماليات التحليل الثقافي الشعر الجاهلي نموذجا، د.يوسف عليمات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان، الأردن، ط1، 2004.

حماسة البحتري، ضبط الأب لويس شيخو، ص 107. - ديوان الحماسة، أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، منقحة ومزيدة بفهارس الشعراء والتعليقات، 1967.

ديوان أشعار المعمرين أخبارهم وأشعارهم في الجاهلية الى نهاية العصر الأموي، صنعه شمس الدين أحمد حالو، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، الطبعة الأولى، 2010.

ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، شرح وتعليق الدكتور م. محمد حسين، المطبعة النموذجية، مصر 1950م.

ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة، 1969م.

ديوان دريد بن الصمة، تحقيق عمر عبد الرسول، دار المعارف، القاهرة، 1985.

ديوان عدي بن زيد العبادي، حققه وجمعه محمد جبار المعيبد، سلسلة كتب التراث، وزارة الثقافة والإرشاد، شركة دار الجمهورية للنشر والطبع، بغداد، 1965م.

ديوان عمرو بن قميئة، تحقيق حسن كامل الصيرفي، مجلة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، المجلد الحادي عشر، القاهرة، 1965م.

ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري (410ه - 476ه) تحقيق دريّة الخطيب، لطفي الصقّال،

مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1395ه-1975م.

ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، 1967 م.

ديوان مهلهل بن ربيعة، شرح وتقديم طلال حرب، الدار العالمية، د.ت.

شرح أشعار الهذليين، أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري (ت275هـ)، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مراجعة محمود محمد شاكر، مكتبة دار التراث، القاهرة، د.ت.

شرح شعر زهير بن أبي سلمى، تحقيق فخر الدين قباوة، مكتبة هارون الرشيد للتوزيع، الطبعة الثالثة، 2008.

الشعر الجاهلي – منهج في دراسته وتقويمه – تأليف الدكتور محمد النويهي، في جزأين، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.

العقد الفريد، شهاب الدين أحمد المعروف بابن عبد ربه الاندلسي (ت328هـ)، تقديم خليل شرف الدين، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1986.

غواية التراث ، جابر عصفور، الدار المصرية اللبنانية، 2011.

في النقد والأدب، ايليا حاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الخامسة، 1986.

قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، مطبعة النهضة الجديدة، القاهرة، 1967م.

معجم الشعراء، لأبي عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني، تحقيق د.فاروق اسليم، الطبعة الاولى، بيروت، دار صادر، 2005.

المعمرون والوصايا، لأبي حاتم السجستاني، قرأه وعلق عليه بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان، 2020.

المفضليات، المفضل الضبي، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، مصر، طبعة أولى، 1361هـ - 1942م.

مقالات في الشعر الجاهلي، يوسف اليوسف، دار الحقائق للطباعة والنشر ـــ بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 1985م.

مقدمة للشعر العربي. علي أحمد سعيد أدونيس, دار العودة ـــ بيروت, لبنان, الطبعةالثالثة، 1979 م .

منتهى الطلب من أشعار العرب، محمد بن المبارك بن محمد بن ميمون البغدادي (ت ٥٩٧هـ)، تحقيق وشرح د. محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، لبنان،

الوجودية في الجاهلية، 159 (مقال)،مجلة المعرفة،ع4، 1963.